الأهرام

المصدر: الشرق الاوسط

التاريخ : ٢٦ فبراير ٢٠٠٥

الحدث المزلزل: المفاهيم الكبرى المستنبطة

التحدي هو: ضرب التنمية والوحدة الوطنية واستدعاء الأجنبي والتيئيس من المستقبل.. فكيف يواجه التحدي؟

اغتيال رفيق الحريري ـ رحمه الله ووسع مدخله وأكرم نزله ـ فجر حزنا عميقا هائلا في نفوس ملايين الناس: من عرب ومسلمين وغيرهم، ولا يتفجر هذا الحزن العميق الهائل إلا من اجل كبير من الناس: أحبهم فاحبوه، وعرفوا مكانته وأعماله الجليلة فبكوه بحرقة، وأثنوا عليه بصدق.

ومع تفجر الحزن: تدفقت مفاهيم ينبغي: ان تذكر ولا تنسى، وأن يتجدد الإحساس والوعي بها دوما: وفاء له، ونفعا للأحياء من بعده:

1 ـ (مفهوم التنمية)، ولسنا نعني: التنمية (اللفظية) ولا التنمية (الشعاراتية). فمباحث (تحليل المضمون) تبين ان العرب من اكثر شعوب الأرض استعمالا لمفردة التنمية على ألسنة المثقفين والاقتصاديين والسياسيين والاجتماعيين والتعليميين والاعلاميين (بالنسبة للأخيرين هناك مئات الكتب والبحوث التي تحمل عنوان: الإعلام والتنمية، لكن هذا الاستعمال الكثير لمفردة التنمية لم يواكبه تطبيق عملي: يوازيه في القدر، ويصدقه في الميدان).

لسنا نعني بهذا مفهوم التنمية. وإنما نعني (التنمية الحقيقية) التي توافرت لها شروطها الموضوعية وهي: إرادة التنمية.. وخريطة التنمية.. وإمكانات التنمية.. وادارة التنمية.. وتوقيت التنمية (بمعنى ان تكون ناجزة غير مؤجلة)..

إن التنمية بمفهومها العلمي الرابح الفالح هذا، لا يريد لها الشانئون: أن تنتشر، ولا أن تستقر، ولا أن تستمر في الوطن العربي.

فمنذ أكثر من نصف قرن: لا يكاد عام يمر على العرب إلا وهم في قلاقل، وفتن، وحروب، وسفاهات لا آخر لها. وهذه كلها عاهات وآفات تعطل التنمية، وتفسد مناخاتها: النفسية والعملية.. فقد كان هناك الانقلابات العسكرية.. وهناك الشعارات الوهمية التي تطعم الناس وهما، وتسقيهم وهما.. وهناك الفساد الذي يخنق التنمية خنقا قاسيا منكرا.. وهناك الخلافات والحروب (البينية) الى آخر قائمة الآفات والعاهات.

ولهذا الوضع المتردي أسباب ذاتية أو داخلية بلا ريب، ذكرنا طرفا منها قبل ثوان. بيد أن هناك (ارادات) خارجية مصممة على تعطيل التنمية الحقيقية في الوطن العربي.

وتنطلق هذه الارادات وتستند الى (فلسفة) معينة خلاصتها: ان وطنا عربيا، أو بلدانا عربية، ستكون مامونة الجانب ما دامت ضعيفة كسيحة. فإذا قويت ـ بالتنمية الحديثة ـ أصبحت خطرا رهيبا. فلا ضمان ـ من ثم ـ إلا أن تكون ضعيفة أبدا (وهذه فكرة صهيونية المنبت والتطبيق).

ولقد ضربت التنمية في لبنان ضربة شديدة.. وهذا من الدلالات الكبرى في اغتيال الحريري.

2 ـ و(مفهوم الوحدة الوطنية) وهو ذو علاقة مبدئية ووظيفية بمفهوم التنمية، بمعنى: أن الشقاق الوطني، إنما هو (مقصلة حادة) من المقاصل التي تودي بحياة التنمية.. يضاف الى ذلك انه في ظل الوحدة الوطنية: يترسخ الأمن العام، والسلام الاجتماعي، في حين: أن الشقاق الوطني يدمر الأمن العام، والوئام الاجتماعي، ولا تنمية إلا في ظل أمن وطيد، وسلام اجتماعي عام وراسخ. ولقد حاولوا أو قصدوا من وراء اغتيال الحريري ضرب الوحدة الوطنية في لبنان.. وهذا درس يجب استيعابه.

3 ـ و(مفهوم الاستبشار بالمستقبل) على أسس تخطيطية وتنفيذية.. ونفسية أيضا.

إن واحدة من أعتى استراتيجيات (التثبيط) الموجهة ضد النهوض العربي: استراتيجية (التيئيس من المستقبل)، وهو تيئيس عام، في كل شيء: في السياسة والثقافة والاجتماع والاقتصاد.

وهذه حرب نفسية وفكرية وبيلة، فليس يقتحم المستقبل، ويتوغل بثقة في آفاقه المفعمة بالاحتمالات الحسنة: امرؤ، أو وطن: يئس من المستقبل (تشير دراسات علمية الى ان معظم حالات الانتحار، وحالات الغرق المطلق في الانحراف: سببها اليأس من المستقبل).. ولقد كان رفيق الحريري من القلائل الذين: تجاوزت رؤيتهم الحاضر الى

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

زين العابدين الركابي

المستقبل الواثق.. وهذه كذلك دلالة من دلالات اغتياله.

4 ـ و(مفهوم) ترسيخ فكرة: أن (الأجنبي) هو (الضامن القوي الأمين) لحاضر العرب ومستقبلهم.. ويلزم ـ ها هنا ـ مزيد من تكثيف الضوء على نقطة نحسبها جد مهمة: نقطة أن الأمر يبدو وكأن ثمة تبديلا في الحركة، أو تعديلا في الأسلوب والإخراج. يبدو الأمر وكأن (الاستدعاء الطوعي للأجنبي) قد أصبح بديلا للاجتياح العسكري بالإكراه.

هذه المفاهيم نقترح أن تكون محور دراسة وتفكير جادين عند راسمي السياسات، وصانعي القرارات العرب، بل أن تكون هذه المفاهيم في طليعة أولوياتهم وأجنداتهم: العاجلة والآجلة.

لماذا ؟

لأنه لا يبقى شيء صحيح ونافع: إذا ضربت التنمية.. ومزقت الوحدات الوطنية.. وحصل التيئيس من المستقبل.. وهدد الاستقلال والسيادة بالمسارعة إلى (الوصي الأجنبي).

من خلال ما سبق: يتبين أن أمام العرب هذه الخيارات:

أولا: خيار اتخاذ قرار جماعي بـ(الهجرة الجماعية) من الوطن العربي تحت وطأة التحديات والظروف الراهنة. وهذا خيار معناه: التولي يوم الزحف، بل معناه: إهدارَ الوجود والحياة. ثم هو خيار غير مستطاع لأنه خيار غير عملي. فالعرب لو قرروا الهجرة من وطنهم، فلن يرحب بهم أحد. ولا سيما في هذه الظروف التي يتهم فيها العربي وهو بريء.

ثانيا: خيار (البقاء في المكان) مع اجترار الخوف والعجز والنواح. وهو خيار يزيد البلاء والكرب. ذلك: ان هذه النقائص الثلاث تهبط بالمقدرة العقلية والارادية. ويترتب على ذلك: سقم فظيع في الرؤية والقرار، وشلل مريع في العمل والبناء.

ثالثا: خيار (الاسترخاء).. والاسترخاء هو ـ كذلك ـ أوسع مساحة، وأعرض فرصة يستغلهما الشائن لتنفيذ المزيد من خطط الضغط والتعطيل والتخذيل والإرباك والتفشيل ضد العرب: أوطانا مفردة، أو قوما مجتمعين.. وهل تنفذ السياسات والاستراتيجيات الشريرة إلا والأمة في اسوأ حالات (الرخاوة): العقلية والإرادية والعملية.. والتاريخ الموثق يدلي بشهادته فيقول: إن هزائم هذه الأمة وخيباتها العسكرية والسياسية والحضارية لم تقع إلا في أزمنة التثاؤب والاسترخاء: استرخت فسقطت الأندلس.. واسترخت فاجتاحها التتار.. واسترخت فغزاها الذين اصطنعوا الصليب عنوانا لغزوهم.. واسترخت فاحتلها الاستعمار.. واسترخت فضاعت فلسطين.. واسترخت اليوم فاشتد التحرك الساعي الى إخضاعها من جديد. والى خذلان قضاياها، والإضرار بمصالحها، والنيل من خياراتها: العقدية والثقافية والاقتصادية والحضارية.

رابعا: خيار (التصميم على التفوق) أبدا: في كل مجال. ولكن لهذا الخيار مقتضياته الموضوعية والجادة وهي في إيجاز: تكوين (رؤية) أمنية وسياسية واقتصادية واستراتيجية وحضارية متكاملة. ويشترط في هذه الرؤية: ان تكون علمية غير انفعالية، وواضحة غير غامضة ولا مبهمة، ومفصلة غير مجملة، وواقعية غير خيالية، وجسورة غير جبانة ولا مترددة. أي ينبغي ان تنتظم هذه الرؤية (عناصر التدافع) كافة، ولا تركز على الجانب العقدي، أو التاريخي، أو السياسي وحده.

خامسا: خيار الإقبال على التنمية والنهوض بهمة عملية، وبحالة نفسية ترقى الى مستوى العشق والهيام.

سادسا: خيار الحرص البالغ على (الوحدة الوطنية) وحمايتها من التمزق: بشدة: تصل الى حد (الشراسة).

سابعا: وخيار الثقة بـ(المستقبل) الى درجة اليقين.

ثامنا: خيار التحرر التام من أغلال الجموح الى الاستعانة بالأجنبي، والرقي بوصايته، من أجل حسم مشكلة وطنية داخلية.

والخيارات الخمسة الأخيرة هي (الخيارات الراشدة والضرورية)، وهي الخيارات اللائقة بأمة تريد ان تحيا ولا تموت، وان تعز فلا تذل، وان تكون حرة لا مستعبدة، وقوية غير ضعيفة.

أمة تحترم، ولا تتسول العطف والشفقة.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية